الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها، وقد لاتتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

جناية الحروب العربية على الفكرة القومية

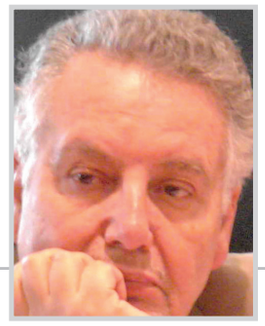

بعد النهضة التي شهدها الفكر القومي في نهاية القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، أخذت فكرة القومية بالسقوط، بدءاً بفترة السنوات الثلاث (١٩٦٣-٦٦) التي شهدت من خلال مؤتمرات القمة، فترة انحسار لفكرة القومية العربية، بسبب انهيار الوحدة المصرية – السورية في عام ١٩٦١، حيث بدأ عبد الناصر يركز على مفهوم "العروبة" وهي الصيغة المصرية المعدَّلة للقومية العربية، بعد انفصال الوحدة المصرية – السورية في ١٩٦١، بدلاً من مفهوم القومية العربية الذي كان منبعه بلاد الشام.

شاكر النابلسي

القومية العربية في مفترق طرق

تبدُّل وتغيُّر الشعارات السياسية

وفي عامي ١٩٦٦، ١٩٦٧ ظل استعمال مفهوم القومية العربية في الخطاب الناصري ضعيفاً، واستُبدل بمفاهيم جديدة على غرار: "العروبة"، "وحدة القوى الثورية"، و"الثورة العربية".

وبعد هزيمة ١٩٦٧ القاسية، ظل مفهوم "القومية العربية" ضعيفاً في الخطاب الناصري مثله في ذلك مثل مفهومي: "العروبة"، و"الثورة العربية" حيث توجه عبد الناصر في خطابه السياسي بعد هزيمة ١٩٦٧ إلى "الحكومات العربية"، لكي تساعده في بناء الاقتصاد المصري المتهالك والجيش المصري المهزوم. ثم شهدت حركة القومية العربية تراجعاً واضحاً بعد هذه المرحلة، وبعد موت عبد الناصر، رغم وجود وريث سياسي متواضع للناصرية، وهو معمر القذافي الذي ظهر في ليبيا في عام ١٩٦٩، وتبنى أفكار عبد الناصر في القومية، وكان الصدى للصوت الذي اختفى، وأنشأ صحفاً ومعهداً للفكر العربي والقومي في بيروت بعد ذلك، لترويج أفكاره، على غرار ما فعل عبد الناصر من قبل.

المرحلة الساداتية والفراغ السياسي القومي

بعد المرحلة الناصرية التي تحدثنا عنها في مقال الأسبوع الماضي جاءت بعد رحيل عبد الناصر المفاجئ والمفجع لكل العرب وليس للمصريين فقط، المرحلة الساداتية (١٩٧٠- ١٩٨١) التي امتدت طيلة حكم أنور السادات (١٩١٨-١٩٨١) والتي شهدت اضمحلال القومية العربية كممارسة سياسية بعد ما شهدت نهوضاً ما في المرحلة الناصرية، وكانت نتيجة ذلك نشوء فراغ سياسي قومي أدى إلى أن تشهد هذه المرحلة بدء ظهور الجماعات الإسلامية بدعم من أنظمة حكم عربية ومنها نظام حكم السادات لملء الفراغ القومي بالخطاب الديني.

وحاولت هذه الجماعات بفكرها وممارساتها أن تملأ الفراغ القومي الذي أحدثته الناصرية برحيل عبد الناصر.

وزاد في اضمحلال فكرة القومية العربية كممارسة في هذه المرحلة قيام الحرب الأهلية اللبنانية في عام ١٩٧٥، وإنهاء الحروب مع إسرائيل، وتوقيع معاهدة كامب ديفيد ١٩٧٨، وبدء مسيرة قطار التسوية السلمية على قضبان سكة الحديد الأمريكية، وعزل مصر سياسياً من قبل الأنظمة العربية ومقاطعتها، وقيام الثورة الإسلامية الإيرانية ١٩٧٩، وما كان لها من أثر إيجابي على نشاط الجماعات الإسلامية في مصر والسودان والجزائر والخليج العربي.

حروب باسم القومية العربية

وكانت في مسيرة فكرة القومية العربية المرحلة الصدَّامية العراقية التي بدأت مع ظهور صدام (١٩٣٧ – ٢٠٠٦) السياسي في عام ١٩٧٩، ودخوله حرب السنوات الثماني مع إيران في عام ١٩٨٠ ثم حرب الخليج في عام ١٩٩١ التي امتدت آثارها إلى ما بعد نهاية هذا القرن. وهاتان الحربان تم خوضهما باسم القومية العربية.

وظهر فيهما صدام حسين في نظر البعض بطلاً قومياً عربياً، أعاد إلى جوانب من الذاكرة العربية لدى البعض أمجاد صلاح الدين الأيوبي وعبد الناصر، فالحرب العراقية – الإيرانية التي أطلق عليها "قادسية صدام" كانت تُصوَّر في معظم أجهزة الإعلام العربية وخاصة الخليجية على أنها حرب قومية عربية بين العرب والفرس، لا بين العرب المسلمين والإيرانيين المسلمين.

كذلك، فقد تم خوض حرب الخليج بدافع قومي، كما قالت أجهزة الإعلام العراقية في ذلك الوقت، وتحقيقاً للوحدة العربية التي فشل الآخرون من قبل في تحقيقها، وكانت هذه الحرب، حرباً بين الغزاة الصليبيين والقوميين العرب، كما قال العراق، وإعلامه والعرب المتحالفون معه.

ومن خلال هاتين الحربين (الحرب العراقية – الإيرانية، وحرب الخليج) يتبين لنا أن العراق ومناصريه حاولوا استخدام "الإحياء القومي العربي"، كأداة لتنفيذ خططهم وطموحاتهم، وشهدت حركة القومية العربية في هذه الفترة، طفرة عاطفية أذكرتنا بطفرات الخمسينيات (تأميم القناة، وحرب السويس) والستينيات العاطفية الجياشة (حرب اليمن، وحرب ١٩٦٧).

القذافي وشاعرية القومية العربية

وبذا تكون المرحلة الصدَّامية في ممارسة فكرة القومية العربية وتطورها قد امتدت من (١٩٨٠-١٩٩١)، ونحن لا نعني بالتطور هنا، أن يكون تطوراً نحو الأفضل. فمن المعروف أن حكم صدام حسين ومغامراته العسكرية مع إيران وفي الخليج العربي، قد أساء إساءة كبيرة إلى فكرة القومية العربية داخل الوطن العربي وخارجه، وجعل الغرب يشبه العرب بالنازيين والقومية العربية بالنازية والفاشية.

فتدهورت الفكرة القومية، وأخذ نجمها بالأفول، ولم يبقَ من زعيم على الساحة العربية له هَمٌ قومي واضح، غير معمر القذافي الذي تبنى فكرة القومية العربية تبنياً شاعرياً رومانسياً، بعيداً جداً عن أرض الحقائق السياسية والتطبيقات الواقعية، والدليل على ذلك، تخلي القذافي عن الدعوة القومية العربية، وتبني الدعوة القومية الإفريقية وتنصيبه ملك ملوك إفريقيا في ٢٠٠٨، وسعيه إلى إقامة الولايات المتحدة الأفريقية UFA على غرار الولايات المتحدة الأمريكية USA يكون هو رئيسها الأبدي، ولعل ما قاله عبد الناصر في القومية العربية في أطروحته "فلسفة الثورة"، يقترب كثيراً مما قاله القذافي في "الكتاب الأخضر"، وقد أدت النظرة الرومانسية غير الواقعية إلى أن يقع القذافي في أخطاء سياسية متعددة، فقد فشل في إقامة الاتحاد الفيدرالي مع سوريا والسودان في عام ١٩٧٠، وفشل في إقامة وحدة مع مصر في عام ١٩٧٢.

وفشل في إقامة الوحدة مع تونس في عام ١٩٧٤، وفشل في إقامة الوحدة مع المغرب في عام ١٩٨٥. وكان عبد الناصر من قبله قد فشل في إقامة وحدة متينة مع سوريا في (١٩٥٨-١٩٦١)، وفشل قبلها في حرب السويس ١٩٥٦، وبعدها في حرب اليمن في عام ١٩٦٢.

وهُزم هزيمة كبرى في حرب حزيران في عام ١٩٦٧، ما كان له أثره السيئ على مصر التي خسرت خسائر مادية كبيرة، وفقدت وفقد معها عبد الناصر جزءاً كبيراً من زعامته لحركة القومية العربية.

وأصبحت القومية العربية نقمة على مصر لا نعمة عليها، ما دفع مفكراً مصرياً ناصرياً كسعد الدين إبراهيم لأن يقول: "لقد ارتكبت باسم شعار القومية العربية بعض الممارسات المعجوجة من قبل بعض الحكام العرب، حتى كاد هذا الشعار يسقط من القاموس السياسي في الثمانينيات". ("مصر تراجع نفسها"، ص ٧٥).

من أجل تطور فكرة القومية العربية

وقد لجأنا إلى هذا التقسيم المرحلي، لا لأنه التقسيم التاريخي الصحيح الوحيد، ولا لأنه التقسيم التاريخي الوحيد المطروح في أدبيات السياسة العربية المعاصرة، ولكن لأنه أقرب التقاسيم المرحلية المعاصرة التي نستطيع عن طريقه فهم واستيعاب تطور ممارسة فكرة القومية العربية من خلال هذه المراحل السياسية التي حاول زعماؤها تبني فكرة القومية العربية كأداة سياسية من الأدوات التي استعملوها لتثبيت أركان حكمهم وصبغه بالصبغة القومية والوطنية تحقيقاً لتنفيذ أغراضهم وطموحاتهم السياسية المختلفة.

وكان يمكن لنا أن نستنبط تقسيماً آخر، يعتمد على ظهور المفكرين السياسيين الذين كتبوا في القومية العربية وفلسفوا هذه الإيديولوجيا بدءاً بميشيل عفلق وانتهاءً بالصادق النيهوم، وعلى أساس تصنيف المفكرين العرب عامة في هذا العصر تصنيفاً اجتهادياً ضمن فئات أربع.

أهل اليمين وأهل الشّمال

١- أهل اليمين، ويقسمون إلى قسمين:

أ- الإسلاميون المتفتحون، وهم الأقلية بين المفكرين الإسلاميين. وهم المفكرون الذين يحاولون إبعاد الدين عن السياسة إبعاداً تاماً، ويترددون في فصل الدين عن الدولة فصلاً نهائياً كما حصل في الغرب، ويقدرون الحركة القومية العربية، وينادون بالديمقراطية والحرية، ومثالهم الواضح: خالد محمد خالد، محمد عمارة، عبد الله العلايلي، أحمد صدقي الدجاني وغيرهم.

ب- الإسلاميون السلفيون المتشددون، وهم الأغلبية بين المفكرين الإسلاميين. وهم المفكرون الذين يريدون العودة بالمجتمع العربي إلى العهد الراشدي (السلف الصالح) مبدأً وتطبيقاً، وينكرون الرابطة القومية ويرمونها بالجاهلية الجديدة، ويقفون من الحداثة والعَلمانية والديمقراطية موقفاً عدائياً متشدداً، وينادون بشورى العهد الراشدي، ومنهم من يهدر دماء العَلْمانيين الليبراليين والماركسيين، كما فعل السلفي السعودي عوض القرني عام ١٩٨٨ في كتابه "الحداثة في ميزان الإسلام"، ومثالهم الواضح: عائشة عبد الرحمن، زينب الغزالي، سيّد قطب، أنور الجندي، محمد متولي الشعراوي، عوض القرني، سلمان العودة، ومعظم رجال الدين في الخليج العربي، ومصر، والمغرب العربي.

٢- أهل اليسار ويقسمون إلى قسمين أيضاً:

أ- العَلْمانيون المنفتحون، وهم الأغلبية بين المفكرين العَلْمانيين المنادين بفصل الدين عن الدولة، ولكن ليس بشكل قاطع في بعض الأحيان، وهم الذين ينادون بالديمقراطية والحرية والحداثة والعلمانية، وينفتحون انفتاحاً كلياً على الفكر الإنساني، ومنهم من ينادي بالاشتراكية، ومنهم من يتحفظ عليها. ومعظمهم يستعمل بعض أدوات التحليل والتفسير الماركسي، ولهم وجهات نظر ماركسية في بعض وجوه الفكر السياسي وتفسير التاريخ، وإن لم يكونوا ماركسيين خُلّص، ولكن هؤلاء المفكرين غالباً عاجزون عن صياغة موقف فكري مميز ومركّز ومتناسق. ومثالهم الواضح في الفكر العربي المعاصر: نوال السعداوي، فاطمة المرنيسي، غادة السمّان، فهميّة شرف الدين، مارلين نصر، سعاد الصباح، قسطنطين زريق، فؤاد زكريا، السيّد ياسين، حليم بركات، حسن حنفي، منيف الرزاز، عزيز العظمة، برهان غليون، ياسين الحافظ، نديم البيطار، غالي شكري، لويس عوض، هشام الشرابي، عبد الكبير الخطابي، وغيرهم.

ب- العَلمانيون الماركسيون المتشددون، وهم الأقلية بين المفكرين العَلْمانيين الذين يتبعون الفكر الماركسي، ويقفون من محاور الفكر العربي المعاصر كافة الموقف الماركسي المعادي لفكرة القومية العربية والوحدة العربية والمنادي بالأممية، ومثلهم الواضح: طيب تيزيني، صادق العظم، إسماعيل صبري عبد الله، حسين مروة، مهدي عامل، محمود أمين العالم، سمير أمين، أنور عبد الملك، وغيرهم.

إلا أن هذا التصنيف يبقى تصنيفاً اجتهادياً مبدئياً غير نهائي، حيث أن عملية فرز الفكر العربي وممثليه في هذا العصر من الصعوبة بمكان، نتيجة لعدم رسو الأفكار واستقرارها الاستقرار التاريخي المطلوب، ونتيجة لأن بعض المفكرين يتنقلون بين المدارس الفكرية، ويصالحون الفكر الذي كان يعادونه بالأمس، حتى أصبح "الفكر المتصالح" سمة من سمات الفكر العربي المعاصر.

الشخصية العراقية

أزمة التاريخ والسلطة والقهر الاجتماعي

علي حسن الفواز

كثيرا ما أحيطت الشخصية العراقية بالغموض والتعتيم وسوء القراءات، وكثيرا ما تحولت الى مادة سردية مثيرة للمتخيلات الثقافية، والشائعات الثقافية والشعبية، بل وضعها البعض في سياق ايهامي للجماعات المتخيلة التي تمتاز بخصوصية نافرة ومتمردة، جعلتها خارج التوصيف الاجتماعي. هذه الإحاطة القصدية نأت في الكثير من استقراءاتها عن اعتماد مقاربات تاريخية وعلمية وتوجهات اناسية تضع هذه الشخصية في سياقها الإنساني الباعث والمولد والمستجيب، وفي إطار ما تعرضت له هذه الشخصية من كوابت وكوابح وضغوط ومهيمنات وأنماط من المعيش، والتي أسهمت جميعها الى حدّ كبير في صياغة العديد من ملامحها وتشكلاتها واستجاباتها، ونظام وجودها وهويتها وسلوكها وتعدد مستويات معيشها.

أزمة الحديث عن الشخصية العراقية ترتبط أساساً بأزمة إدراك طبيعة هذه الشخصية في المكان والزمان، خاصة ما يجعل هذين المؤشرين خاضعين لمرجعيات سياسية قهرية، وأنماط من الحكم والسطوة والكبت، تلك التي جعلت صيرورة الشخصية رهينة بتراكم وقائع ضاغطة تاريخية وسياسة واجتماعية واقتصادية وكوارث طبيعية وعسكرية وغزوات دامية، كل هذه سحبت هوية هذه الشخصية الى ارتكاساتها النفسية، ورهاب ما تمثله هذه الوقائع من علامات للدمار والعنف وللاخصاء الوجودي وللموت الانطولوجي.

وهذا ما جعل الشخصية العراقية تبحث دائما عن عوامل لمواجهة هذا المحو والرهاب، الذي ارتبط بعوامل خارجية(الغزو والكوارث والحروب) وداخلية مهيمنات السلطة وقمعها، ومهيمنات الايديولوجيا الطاردة لغيرها، والقوة الغاشمة للقوى المهيمنة (مؤسسات الأمن، الإرهاب، عسكرة المؤسسات). اذ نزعت هذه الشخصية بمواجهة هذه القوى الى صناعة مصدات ثقافية ونفسية للدفاع السري عن هويتها ووجودها وحتى عقائدها، جعلها الأقرب الى التماهي مع ثقافات (التقية) والثقافات الباطنية، الثقافات الدفاعية.

وطبعا فان هذه الثقافات تعمد دائما لصيانة مشروعها على اجتراح موجهات داخلية/دفاعية تشرعن فيه خطوط سرية للتحصن والمقاومة، فضلاً عن نزوعها لصنع خطابات ثقافية فيها الكثير من الشفرات والرموز التي يمتزج فيها المخيال السردي، مع نزعات العنف الدفاعي والأخلاقي.

فهل الشخصية العراقية هي الوحيدة التي تمزج هذا العنف بقيم وشفرات تستوحي قوتها من عقائدها المسكوت عنها؟ وهل هي المتفردة في إيجاد هامش ثقافي لهذا العنف وهذه العقائد في نصوص وطقوس يشتبك فيها الرمز والاستعارة مع موحيات التقديس؟ وهل هذه الثقافة تربط بشكل او بآخر بخصوصيات عبادية الديانات تؤسس خطابها على العلامات الطقوسية والرمزية باعتبارها أشكالاً مقدسة لمواجهة القوة وسيطرة رمزية العنف السلطوي في مكان العقائد؟ وهل هذه المورثات هي المسؤولة عن صناعة المجال التوليدي لاستمرارية انتاج القسوة وسردية الحاكميات والحكومات، تلك التي وجدت في فرض عنف السلطة ضرورة للدفاع الغريزي عن نوعها وعن ذكورتها القهرية؟

وهل التاريخ السياسي للسلطة في مدن العراق بدءا من النموذج الأموي والعباسي وما تلاه في تاريخ الفترة المظلمة، كما تسمى ونموذج السلطة العثمانية وانتهاء بالنموذج الوطني للسلطة بدءا من عام ١٩٢١ ولغاية ٢٠٠٣، هو خارج سياق انتاج العنف الضاغط والمولد لثقافة العنف المضاد او العنف المكبوت في الشخصية العراقية؟

هذه الأسئلة تحرضنا دائما على الوقوف عند ظاهرة العنف الثقافي، فحصها والتعاطي مع إشكالاتها، لا باعتبارها ظاهرة إنسانية غريزية دفاعية، بل باعتبارها نوعا من الثقافة الاقصائية التي تقوم على القصدية في محو الآخر، او فرض أشكال من الرهاب الثقافي اللغوي والرمزي والمادي عليه، بما يمنح هذا الآخر صفة العدو، المختلف معه، الكافر، الزنديق، الخارج عن الملة والأمة كما تسميها بعض الأدبيات، والتي توجب تكفيره، ولزوم قتله او طرده او تغييبه لانه يهدد النوع الثقافي والنوع السلطوي/ الايديولوجي.

لقد شهدت الكثير من مراحل التاريخ القديم والجديد نماذج من هذا العنف الاقصائي، بدءا من نشوء المرحلة الزراعية التي حددت أول ملامح السيطرة الذكورية المرتبطة بعوامل القوة والهيمنة والامتلاك والسيطرة على مصادر الثروة والقوة، ونشوء الدول الغازية التي سحقت الكثير من الحضارات والشعوب والدول والمدن والثقافات والهويات، وآخرها نماذج (الاستعمارات) الغربية التي بدأت مع بدايات نشوء أوروبا السياسية ومطامحها في السيطرة على رؤوس أموال وعمالات رخيصة في الشرق وفي إفريقيا وفي البيئة اللاتينية، والذي أسهم بشكل او بآخر صناعة أنماط من الصراع الدموي مع شعوب هذه المناطق، مثلما اسهم أيضاً في صناعة اشكال أخرى للحكم والسيطرة وبمرجعيات متعددة لإدارة هذه الشعوب ودولها، وانتهاء بأنماط الديكتاتوريات المعاصرة التي جاءت بعد مرحلة (الاستعمار) وبمزاج (كارزمي) ذي مخيالات شعبية للسيطرة على الحكم وإدارة الثروات الضخمة، فضلا عن ان هذه الديكتاتوريات العسكرية والايديولوجية والقبائلية عمدت الى (أنسنة) العنف تحت عناوين براقة استعارت من المقدس والمزاج الوطني الكثير من شعاراتها العمومية (الدفاع عن الوطن/ الهوية/ الدين/ العرض/ الأخلاق) ضد الغازي الكافر المستعمر، مثلما تم تحويل هذا العنف الى ثقافة إيهامية متعالية كرسته كشكل ووظيفة وموقف وأحياناً كأيديولوجيا، تجسد عبر الكثير من الحروب العبثية، ومواجهة التداعيات الاجتماعية الرافضة لوظيفة العنف، والتي أخضعتها الديكتاتورات الى توصيفات أخرى (الخيانة، معاداة المصالح الوطنية العليا، الارتباط بالأجنبي وغيرها) والتي تفرض على المتورطين فيها الخضوع الى احكام جائرة جنائية ومعنوية مثل السجن والاغتيال والقهر النفسي والحرمان الرمزي من الحرية والخصوصية والخصوبة والنفي القهري.. هذا العنف والعنف المقابل عمد الى اقصاء كل الافكار الإنسانية التي ترفض السيطرة والقوة الغاشمة، خاصة تلك الافكار التي ارتبطت بالايديولوجيات ك(اليسار السياسي الايديولوجي، والتيارات الدينية الشيعية التي رفضت القهر الوطني والطائفي) والتي استدعت بالمقابل أيضاً إنتاج أشكال سرية وظاهرية للعديد من المواجهات عسكرية وحروب عصابات ونوع من السلوك الرمزي الذي اتبعه الصعاليك والشطار والعيارون، فضلاً عن إنتاج أنماط أخرى من الثقافات الباطنية السرية التي اتبعت التقية والتراسل السري بين الوكلاء والإتباع والمريدين في صناعة ثقافة نوع آخر، تلك التي تعتمد العنف المضاد، العنف النفسي والتأويلي.

تاريخ هذا العنف السلطوي/ السياسي/ الاجتماعي وتراكماته وضغوطه القهرية، واثر الكثير من العوامل الخارجية خلق له امتدادات نفسية داخل الشخصية وداخل المجتمع، لان السلطة، أية سلطة كانت سياسية او أبوية او دينية تكرس نمطها عبر تأمين مصادر القوة والثروة والعنف، فضلا عن تحديد اشكال معقدة لقيود الانتماء والمصالح والتبعية وطبيعة نظام العمل وتأمين مصادر العيش والتربية، وهذا بطبيعة الحال يحدد العلاقة بين السلطوي والآخر وفق سياق يخصي الخصوصيات، ولا يؤمن بالخروج عنها، يفرض شكلا من التماهي القسري.

ولاشك في ان تراكم رهاب هذه العلاقة أسهم في تشكيل علاقات اجتماعية/ثقافية فقهية(ذات مرجعيات معروفة) تقوم على التطرف في القراءات النقلية وفي التقليد والتبعية، تلك التي خلقت لها رموزاً وشفرات وسياقات وايهامات اكتسبت نوعا معقدا من(الثقافة) الإطارية التي تبرر أي سلوك وأي موقف وأي عنف، لانه سيخضع لتوصيف الايدولوجيا الدفاعية التي حددها شكل العلاقة المعقدة والغامضة بين التابع والمتبوع او الحاكم والمحكوم او بين الصاحب والمريد.

خطورة العنف داخل هذه الأنماط الثقافية، تحوّل الى ظاهرة قهرية ضاغطة وموجهة انعكست على انتاج ظاهرة الدولة وظاهرة المجتمع، اذ ان الدولة الشرقية خاصة شرقنا العربي والإسلامي ومنها الدولة العراقية، ظلت قرينة عنف متواصل، لان اصل هذه الدولة ومنذ اكثر من الف سنة كان يقوم على فكرة عصاب النوع، وعصاب فكرة الرعوية، وعصاب فكرة القوة والسيطرة، لاتؤمن بالتعدد والاختلاف والحوار الاجتماعي والثقافي، لا تؤمن بالحريات وإنتاج الأفكار وتداولها خارج سياقها، وهذه العصابات هي اشكال عنف الدولة الذي خلق له مريدين ومهرجين ووعاظاً ونصوصاً اكتسبت فيما بعد شكل المقدس وحتى التابو الاجتماعي. كما ان المجتمع بغياب الدولة العادلة تحوّل الى مجتمع طبقي ومجتمع سياسي وطائفي تنتشر عن فيه مفاهيم القوة والعنف الاجتماعي والاقتصادي والسلوكي والثقافي بين القوى المتخاصمة، وانا اعتقد ان تاريخ العنف في الحياة العراقية هو في الأصل نتاج لعنف هذه الدولة التي لا شكل واضح لها، بدءا من دولة المناذرة ودولة الحروب خلال الفتوحات الإسلامية وصولا الى دولة الأمويين ودولة العباسيين وحروب هولاكو وجنكيزخان وتيمورلنك والسلاجقة والبويهيين والصفويين ودول الخروف الأسود والخروف الأبيض والعثمانيين وانتهاء بنمط الدولة الانقلابية الاكثر رعبا الذي بدأ منذ عام ١٩٦٣ الى ٢٠٠٣. لان هذا العنف اسهم في صناعة سياقات اجتماعية ووظائف وتوصيفات رمزية مثل وظائف العسس والبصاصين والسيافين وأصحاب الحسبة ورجال الأمن والمخابرات والقناصين.

ان صناعة العنف في المكان العراقي، هي صناعة موجهة، ذات مرجعيات إشكالية، أسهمت في إنتاجها عوامل السلطة القهرية، التي أحكمت هذا المكان بأنماط محددة من المعيش، والوجود، والعلاقة المأزومة بين الحاكم والمحكوم، او بين (السلطة والرعية) اذ كان رعب هذه العلاقة هو المولد لثقافة العنف والكراهية، فضلا عن ان شيوع الفقر والجهل والتخلف وهما جزء من مخلفات السلطة القهرية، أسهم هو الآخر في صناعة الشخصية المطلبية، الشخصية التي تبحث عن مصادر معيشها ووجودها، مثلما أسهمت في الشخصية الخانعة المستلبة الخاضعة لوجهات السلطة، وحتى شخصية(الشقاوة) في البيئة الشعبية العراقية هي في جوهرها صناعة دفاعية عن المكان والوجود لجأ اليها المخيال الشعبي للدفاع عن مكانه وهويته، والتي كثيرا ما وظفتها الايديولوجيات لصالح خطابها السياسي المقاوم، مثلما استخدمتها الديكتاتوريات لأغراض معينة وآخر هذه المظاهر هو ما عمد النظام المباد لاستخدام عدد محدود من(الشقاة) لغرض قتل المعارضين السياسيين، ولعل ما قام به هذا النظام بعد ذلك لتصفية كل هؤلاء الشقاوات دليل على إحساسه بخطورتهم على ثقافة مهيمناته على المكان العراقي..

التوصيف العلمي الانثربولوجي يضع الشخصية العراقية خارج سياق توليد هذا العنف، لان هذه الشخصية تنتمي الى المناطق السهلية المعتدلة، وهذه الشخصية لا يمكن ان تميل الى الطابع السلوكي العنفي، ولعل هذا التوصيف جعل البيئة العراقية اكثر حيازة على شخصنة الخصائص الثقافية كالشعراء والحكماء والعلماء والمتصوفة، وابعد عن الغلظة والسلوك الوحشي وان العنف في هذه البيئة هو دائما عنف من بيئات خارجية، مهاجرة، ولعل اية مراجعة للطغاة الذين مارسوا العنف في البيئة العراقية او الذين خلقوا سياقات ووظائف له نكتشف انهم غير عراقيين في الأصل، وليس لهم علاقة حقيقية بالمكان العراقي ومولداته الإنسانية والأخلاقية والثقافية، فضلا عن خصوصية المدينة العراقية عبر(نواتاتها) الصغيرة في المجمعات السكانية والشوارع الضيقة والتي تتسم عادة بالحميمية والشراكة، ونبذ العنف القهري القائم على محو الآخر وطرده من المكان الحميم.. ان إعادة قراءة الشخصية العراقية يعتمد بالضرورة على قراءة كل ما يحوط هذه الشخصية من مشاكل عميقة الاثر في المكان المعيشي والمكان السياسي، لان العوامل الخارجية التي اصطنعتها المهيمنات الخارجية شوهت المكان، والمعيش، مثلما شوهت الإنسان وعلاقاته، خاصة اذا أدركنا أهمية المكان في الانثربولوجيا العراقية، اذ يقول البعض ان الإنسان العراقي ابن مكانه، وان القهر المكاني والعنف المكاني وتشوهات المكان هي التي أسهمت في انتاج الكثير من ملامح هذا العنف السلوكي والرمزي والممارسات التي تحمل في جوهرها شفرات احتجاجية رافضة للسلطة ولقوة رأس المال والتملك بدءا من التملك الحكومي وانتهاء بالتملك الطبقي.. ولعل قراءة ظواهر مثل الحواسم، والعنف الطائفي تنعكس عبر قراءة الظواهر الاشكالية في المكان وأنماط الثقافات المهيمنة خاصة الثقافات الفقهية التي تم توظيفها من قبل السلطة والايديولجيا بشكل مشوه لفرض الهيمنة، والتي أصبحت فضاء مفتوحا لأنماط أخرى اكثر تطرفا وغلوا في تكفير الآخر وإباحة دمه وماله وعرضه.

ناهيك عن ان ظاهرة الحواسم لم تكن بعيدة عن الاختلاط الثقافي وتشوه موجهاته، والاثر النفسي العميق الذي يعكس نزعات دفاعية إكراهية عدوانية مقابلة للخطاب المهيمن الذي كان يملك كل شيء ويوزع دون عدالة الحقوق والثروات على الآخرين.

ومن هنا أجد إعادة انتاج الدولة كسلطة ونظام للحكم والوظائف الاجتماعية والثقافية، هو المدخل الأساسي للتعاطي مع الإشكالات الظاهرة والبائنة لظواهر العنف الاجتماعي والعنف السياسي وحتى السلوك العنفي في فرض المهيمن على الآخرين، لان هذا العنف هو الذي أنتج فيما بعد وربما حمى ظواهر اكثر استشراء للعنف الثقافي واللغوي ومظاهر التطرف الفقهوي وحتى الحروب العشوائية التي احتشد بها تاريخنا القديم والجديد، اذ ان هذه الدولة هي المركز الإشكالي المثير للجدل والمشاكل، لان هذه الدولة تحولت الى سلطة وآلية حكم تحوز وحدها على مصادر الثروة والقوة والعنف، وان تاريخ الأزمات السياسية والانقلابات والسجون والمنافي والحروب وكل الصراعات الدامية التي شهدها تاريخنا المعاصر يرتبط بهذه الدولة/ السلطة. ومن هنا نجد ان الحاجة الى تفكيك مفهوم هذه الدولة/السلطة هو الأساس الذي ينبغي فحصه والوقوف عند سياق أزماته وأزمة صلاحياته واستحواذه العام على القوة والعنف، والعمل على تكريس الوعي الدستوري بصناعة الدولة، الدولة المؤسساتية، القانونية، الحاضنة والحامية للجميع، ناهيك عن اجتراح سياقات مضادة تعمد الى صناعة الوعي والرأي العام تبدأ من إعادة صياغة نظم التعليم الأولي والثانوي ومن الدرس الثقافي الأول ولا تنتهي عند إنتاج الكتاب والمعرفة التخصصية الأكاديمية والعلمية، لان تاريخ الأزمة هو تاريخ طاعن في الجسد العراقي وبحاجة الى تطهير عميق، تطهير يرمم الخرابات ويؤنسن الوعي بالجمال والطبيعة والمدينة، ويعيد التوازن للشخصية العراقية في تعددها وتلونها، واحسب ان موت الدولة القديمة هو موت المركز الذي انتج المحنة وانتج القاموس القديم، وجعلنا عاطلين عند المقبرة والسجن والمتحف والمنفى.

آراء وأفكار Opinions & Ideas

ترحب آراء وافكار بمقالات الكتاب وفق الضوابط الآتية:
١. يذكر اسم الكاتب كاملا ورقم هاتفه وبلد الاقامة .
٢. ترسل المقالات على البريد الالكتروني الخاص بالصفحة:

Opinions112@ yahoo.com